مقدمة

إن الدور الحقيقى الذى لعبته دعاوى التنوير والعلمانية - وذلك بكل تأكيد - هو تزييف الهوية العربية، وبعث الحنين إلى ماض تجلب ذكرياته لنا الرضا والارتياح، روح الفرعونية التى تدغدغ عواطف المصريين وتجعلهم يشعرون بأنهم أعظم شعوب الأرض وينسون انهم كانوا!!! ولكن اليوم ما علاقتهم بالعظمة والمجد، وراحت دعاوى التنوير أيضًا تضعف الوازع الدينى عند المسيحيين والمسلمين على السواء بالتشكيك فى ثوابت العقيدة والموروث الثقافى. بدأ هذا التيار يدق بعنف على كيان الثقافة العربية منذ مطلع القرن التاسع عشر مع وصول الحملة الفرنسية إلى مصر، وقد تزايد نفوذه بعد الاحتلال الإنجليزى عام ١٨٨٢م.

وساعد فى اتساع سطوة التيار الفكرى الغربى ما حمله المبعوثون المصريون فى عودتهم من الاتجاهات السياسية والنزعة الفلسفية الغربية ونقلوه إلى الرأى العام النخبوى الذى كان يبعد بمسافات عن رأى العامة مع اعترافنا بأن الفكر الوافد قد حرك المياه الراكدة فى الثقافة وقتئذ.

ومنذ بداية القرن التاسع عشر نزح إلى مصر أتباع سان سيمون عام ١٨٣٣، وقد تأثر محمد على برسالتهم التنويرية لنشر التعليم وأهمل دعوتهم للعدالة الاجتماعية والإخاء والمساواة وتوجيه الفنون والآداب لخدمة المجتمع. وقد نجحوا فى اجتذاب العديد من المصريين بعد إيهامهم بأن دعوتهم لا تتعارض مع الموروث العقائدى بل تسعى للجمع بين العلم والدين فى سياق واحد، وثانى هذه الجماعات هى المحافل الماسونية التى ظهرت فى مصر على يد بعض الأجانب رافعة شعار الحب والإخاء والمساواة والسلام بين البشر وذلك على صفحات الجريدة الماسونية، وقد استهدفت آراؤهم صفوة مفكرى مصر وأصحاب التيارين

العلمى والعلمانى.

أما ثالث هذه الجماعات جمعية جوزيف روزنتال الشيوعية التى ظهرت فى الإسكندرية عام ١٨٩٤ وكان لهذه الجماعة عظيم الأثر فى نشر المبادئ الاشتراكية بين العمال والفلاحين، ويرد إليها تنظيم النقابات العمالية ١٨٩٩، ثم الحزب الاشتراكى عام ١٩٢١م.

وهكذا تولد الفكر العلمانى (الليبرالى) فى مصر، وبعيدًا عن أى اتهام بأنه يعنى الإلحاد أو معارضة الدين أو التبعية للغرب، نذكر هنا أن فريقًا كبيرًا من المفكرين تراجعوا عن علمانيتهم بعد أن ثبت لهم عدم ملاءمتها لخصوصية الثقافة العربية، وقد يقول البعض: إنهم تراجعوا تحت ضغوط قوية إدارية ومعنوية، وهذا ما لا تؤيده أبدًا حالة زكى نجيب محمود الدارس والمبشر بالوضعية المنطقية فى الوطن العربى، وهو ظل يعيش لفترة طويلة داخل إطار الفكر العلمانى المتنور، وفجأة يفيق زكى نجيب محمود من غفوته، وتجده يذكر فى كتابه «تجديد الفكر العربى»: «إذ أعلن أنه واحد من آلاف المثقفين الذين ما إن فتحت عيونهم على فكر أوربى قديم أو جديد، حتى سبقت إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنسانى الذي لا فكر سواه لأن عيونهم لم تفتح على غيره لتراه. ولبثت هذه الحالة مع كاتب هذه الصفحات أعوامًا بعد أعوام، الفكر الأوروبى دراسة وهو طالب، والفكر الأوروبى تدريسه وهو أستاذ، والفكر الأوروبى مسلاته كلما أراد التسلية فى أوقات الفراغ، وكانت أسماء الأعلام والمذاهب فى التراث العربى لا تجيئه إلا أصداء مفككة متناثرة كالأشباح الغامضة يلمحها وهى طافية على أسطر الكاتبين. استيقظ صاحبنا كاتب هذه الصفحات بعد أن فات أوانه أو أوشك، فإذا هو يحس الحيرة تؤرقه، فطفق فى بضعة الأعوام الأخيرة التى قد لا تزيد عن السبعة أو الثمانية يزدرد تراث الأمة ازدراء العجلان».

ويستمر الحال على هذا المنوال مع الأجيال التالية، فترى يمنى الخولى تذكر فى كتابها «حل مشكلة العلوم الإنسانية»:

«ولما كان بوبر أساسًا رجل منطق كانت نظريته فى منطق العلم آية فى الدقة والرصانة والصرامة الأكاديمية ومع هذا عرفت كيف تنساب فى تيار الحياة العلمانية الجارية والبحث العلمى الدافق، فتجد العلماء التجريبيين الحاصلين على جائزة نوبل يؤكدون أنهم وصلوا إلى إنجازاتهم الباهرة بفضل تعاليم بوبر المنهجية والاسترشاد بفلسفته للعلوم... ويقول سير هيرمان موندى «ببساطة ليس العلم شيئًا أكثر من منهجه، وليس منهجه أكثر مما قاله بوبر».

ونطرح السؤال: هل استطاعت يمنى الخولى أن تنتقل بفلسفة العلم – فلسفة بوبر من قسم الفلسفة بكلية الآداب إلى أقسام كلية العلوم وهى على بعد أمتار منها ليقرأها العلماء التجريبيون وعلماء العلوم البحتة؟

ونضع السؤال بطريقة أخرى: كم من علماء مصر التجريبيين وعلماء العلوم البحتة قرأوا فلسفة العلم لبوبر أو أية فلسفة علم أخرى؟

وإذا كان الكلام عن فلسفة بوبر يأتى فى كتاب بعنوان «حل مشكلة العلوم الإنسانية» فكم من أساتذة العلوم الإنسانية (وخاصة فى قسم الفلسفة التى تعمل به يمنى الخولى) قرأ كتابها أو فلسفة بوبر ذاتها.

ثم يأتى السؤال الأخير: ما فائدة تدريس الفلسفة بكليات الآداب وبعض معاهد الفنون فى مصر. والفلسفة المطروحة لم تغير فكر المصريين ولم تعمل على إتاحة الفرصة لتخريج بعض المفكرين النابهين الذين يدرسون الواقع، ويوجهون ما درسوه من مذاهب وفلسفات لتطوير المجتمع المصرى واستنهاض همم المصريين والعرب بوجه عام؟

إن الفلسفة عندنا لم تفلح فى صناعة إنسان جديد لا يعيش نمط الحياة المعتادة التقليدية التى يتداولها المصريون فى أيامهم من حقبات تاريخية قديمة دون تغيير أو تبديل.

المسافة بعيدة بين الدراسين، والجمهور وحتى فيما بينهم، فالانعزالية والفردية والانكفاء على الذات، عوامل سيطرت، فى كل الأوساط العلمية فى مصر وخاصة داخل الجامعات، وليس هناك أى تعاون أو تبادل

الخبرات بين أعضاء المنظمة الواحدة.

ويكتب زكى نجيب محمود فى كتابه «حصاد السنين»: «فإن روادنا بين أعلام الجيل الماضى رغم ما كانوا يعرضونه مبثوثًا فى ثنايا ما يكتبون عن قيم الحرية والعدالة والمساواة.. إلخ قد كانوا على الأعم الأغلب أحرص الناس على أن تبقى مسافات بعيدة بينهم وبين من يتعاملون معهم من سواد الناس، ويعنى ذلك أنه إذا لم تكن رسالة الكاتب وقد أحدثت أثرها فى شخصه هو، فهل يتوقع لها أن تحدث أثرها فى الآخرين؟».

هكذا حال التنويريين الذين يرددون أفكار وفلسفات الغرب دون أن يفطنوا أنها ظهرت فى ظروف اجتماعية وثقافية واقتصادية غير ظروفنا. ولذلك لم يفلحوا على مدى القرن الماضى أن يصنعوا فكرًا أصيلا متجانسًا يأخذ بالأمة وينتشلها من واقعها المأساوى المهين، بل على العكس تمامًا فإنهم عملوا على مسخ الهوية وضياع الضمير الإنسانى الجميل.

وإلى الآن يظل التنويريون الجدد يكررون التعبير عن أسفهم لتنكر حياتنا الثقافية المعاصرة للمثل العليا التى أرساها مفكرو التنوير فى أوروبا فى القرن الثامن عشر وأصبحت جزءًا من الضمير العالمى المعاصر، ويتنبئون لنا بسوء المصير، وبضياع أى أمل فى التقدم والتنمية إذا لم نتدارك الأمر ونمنع هذا الانحسار لحركة التنوير.

وكثيرًا ما يبدى أهل التنوير عندنا ترحيبًا حارًا ويحتفون بكل من يتجرأ على التراث والتقاليد بالنقد والتهكم حتى فى الحالات التى يخلو فيها العمل من أية قيمة فكرية أو فنية تذكر؛ افتراضًا منهم أن التجديد دائمًا مطلوب. ونحن نقر بأن البقاء على التقليد يجمد حركة التطور، وفى الوقت نفسه ننبه إلى خطر الإطلاق فى النقد والهجوم على التقاليد، فكل مجتمع يعيش فى إطار من التقاليد، لا ينفك عنها إلا بحساب وإلا ضربت فى أوصاله الفوضى والتشرذم والتفكك. إن كل

تجديد ونقد للتراث لا يطلق على عواهنه، بل ينبغى أن يخضع للتقويم فى ظل ظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية خاصة تحكم حركة المجتمع.

ولم يتحقق أبدًا فى أوربا التنوير الخالص والسماح بإطلاق الحريات بدون حدود، وما ارتكب بعد عصر فلاسفة التنوير، ومازال يرتكب من جرائم ومن تقييد للحريات باسم الحرية نفسها وباسم حقوق الإنسان فهو معروف للجميع، ابتداء من مآسى الثورة الفرنسية وحتى الاعتداءات الأمريكية الأخيرة ضد شعوب العالم الثالث فى مختلف أنحاء الأرض، مرورًا بالفظائع الستالينية فى الثلاثينيات والأربعينيات ضد الشيوعيين والفظائع المستمرة ضد الأصوليين المسلمين وهو الاسم الذى يستخدم الآن لوصف كل من يحاول أن يتصدى للاعتداءات الإسرائيلية والأمريكية.

لماذا يتصيد التنويريون أخطاء ثورة يوليو ولا ينوهون بدعوتها للعدالة الاجتماعية والوحدة العربية ومحاربة الاستعمار ومقاومة الفطرسة والهيمنة الأمريكية، وكان الأولى بهم إذا كانوا تنويريين حقًا أن يحتضنوا مبادئ ثورة يوليو، ويقفون يدافعون عن المكاسب التى أحرزها الشعب المصرى، يقاومون كل من انحرف بالتيار الإصلاحى الثورى ويعدلون من مسار الثورة، ويسعون إلى القفز إلى مراحل تطور جديدة، كما فعل الفرنسيون الذين انتقلوا بالثورة عبر خطوات تطوير باستمرار للمجتمع الفرنسى حتى وصلوا إلى الجمهورية الخامسة ، وكما فعل الصينيون بثورة ماو، لم تنحرف أجيال المسئولين المتعاقبة بمبادئ الثورة الصينية، بل أخذوا فى تجديد الفكر والممارسة حتى أصبحت الصين اليوم فى مقدمة الدول المتفوقة صناعيًا وتقنيًا.

ولماذا لا يدعو التنويريون الآن إلى وحدة الصف العربى، وإعلاء كلمة الدين، وإحياء الثقافة العربية الأصيلة فى ضوء أفكار التنوير ومبادئه كما فعل رفاعة الطهطاوى ومن بعده جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده؟

وعلى العكس، فهم يضعون كل هولاء المصلحين التنويريين فى سلة واحدة مع كل التيار الإسلامى، سلة ملؤها التطرف والسلفية والجمود والتخلف.

فى حين أن المقاومة الشرسة ضد الهيمنة الأمريكية ومحاولة تدميرها للأمة العربية والإسلامية لا تتجسد إلا من خلال التضحيات الكبيرة التى تقوم بها قوى إسلامية مؤمنة بعقيدتها وبوطنها تضحى بكل نفيس وغالٍ فى سبيل نصرة كلمة الحق.

نجدهم فى أثناء الثورة الجزائرية يقفون ضد الاستعمار الفرنسى، يقوى الإيمان من عزيمتهم، وحاربوا تحت شعار الإسلام فى أفغانستان ليطردوا السوفييت، وحارب المسلمون فى البوسنة والهرسك، ومن يقف الآن ليقدم الشهداء لتحرير فلسطين هم حزب الله والجهاد، وحماس، وفى الشيشان يدافع المسلمون عن حريتهم واستقلالهم.

وبدلاً من أن يقف التنويريون يشدون من أزر القوى الإسلامية التى تحارب ضد قوى البغى، لا تريد حكمًا ولا جاهًا، يدعون فى خداع كبير لحوار الحضارات والأديان والتسامح وإعطاء الخد الأيمن لمن يضربون على الخد الأيسر، وراحوا يروجون لثقافة الاستسلام والتفريط فى كرامة الأمة ومقدساتها.

حينما انبرى جيفارا فى أواخر الخمسينيات يقاوم الاستعمار، ويدافع عن المظلومين فى كل بقاع العالم، مثّل شعارًا عامًا وقدوة لكل شباب العالم المتطلع إلى الحرية والعدالة والمساواة، ومات جيفارا فى أدغال بوليفيا من أجل تحقيق حلمه لصناعة إنسان جديد، يدافع عن كرامة الإنسان وحريته، وقتها صمت الليبراليون والتنويريون أمام المد الكاسح لكل الثوار والمناصرين للحرية.

أما حينما ينبرى بن لادن لإعلان المقاومة ضد هؤلاء الذين يريدون أن يحطموا الإسلام والمسلمين. وينهوا دين محمد، ترتفع أصوات التنويريين الجدد تقوى وتدعم الهجمة الأمريكية ضد الإسلام، صحيح أن أفكار بن لادن لطريقة الحكم سلفية، ولكن وقفته ضد الاستعمار الأمريكى الجديد

هى وقفة تقدمية تمامًا، فلم يكن بن لادن قد ظهر بتنظيم القاعدة، وأمريكا تسعى منذ بداية الخمسينيات بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية للسيطرة على العالم، وهى أول من أيد قيام دولة إسرائيل، وحاولت فى جر منطقة الشرق الأوسط إلى حلف بغداد، وأفلحت أمريكا فى السيطرة الكاملة على الحكام العرب وإدخال المنطقة كلها فى دائرة نفوذها، وجاء القرار العربى قرارًا أمريكيًا، والحكومات العميلة لا تستطيع فك حصار عرفات الذى استمر لثلاث سنوات، حتى مات الرجل متأثرًا بمعاناته الإنسانية التى لم يحدث مثلها فى التاريخ، ولا تستطيع أيضًا أن تقاوم احتلال أمريكا للعراق، بل إنها تتعامل مع حكومة عميلة تساند القوات الأمريكية فى ضرب العراقيين وتحطيم روح المقاومة فى الأمة العربية، ومنذ احتلال أمريكا لمعظم أراضى دول الخليج وخاصة أراضى السعودية المقدسة، كانت بداية ثورة بن لادن، وتنظيم القاعدة.

إن التعصب ليس فى الدين ولا فى التمسك به، فالتعصب العلمانى أشد وأقسى فى زماننا الحالى والأمثلة عليه عديدة، انظر ما فعله التعصب الماركسى فى الاتحاد السوفيتى، والدول الخاضعة لنفوذه من تحريم الاعتقاد فيما يتعارض مع مسلمات المادية الجدلية، وانظر ما فعلته القومية النازية ضد أى فكر يعارض فكرة تفوق الشعوب الآرية، وانظر إلى الدعوة الأمريكية بأفضلية النظام السياسى الأمريكى عما عداه من الأنظمة السياسية الأخرى، وما فعله الأوروبيون فى مستعمراتهم باسم المدنية، وحقوق الإنسان، وما شهده القرن العشرون من حروب باسم الديمقراطية، وما شهدته السنوات الأخيرة من اضطهاد ضد مسلمى البوسنة والهرسك وفلسطين والعراق والشيشان.

لم يكن التنوير غربيًا بمجرد أنه شعارات ترفع ونداءات تُطلق، يكفى بكلماته ومنطلقاته لتغيير وجه الحياة فى أوربا، ربما يكون فتح الطريق لفهم العلاقة بين الشعوب وحكامها، ومعنى الحرية، وتحرير المجتمع من الأفكار القديمة وسطوة الحاكم، ومن سطوة بعض المتحكمين فى شئون

الشعب التجارية والزراعية والصناعية.. إلخ ولكنه أبدًا لم يغر المستبدين بأن يتنازلوا عن سلطانهم طواعية، ولم يحقق العدالة الاجتماعية، وإطلاق الحريات، بل تحقق كل هذه المكاسب عن طريق نضال طويل ومرير، من خلال الثورة الفرنسية تارة والبلشفية أخرى، ومؤتمرات العمال وتكوين الأحزاب والجماعات، المجتمع المدنى بوجه عام ولم يكن الفكر المتعالى، الوسيلة للتغيير فى أوربا، فلقد دعا جرامشى إلى المثقف العضوى، أى المثقف الذى ينزل من عليائه إلى الشارع ليقود الجماهير لمقاومة الأوضاع التى تتطلع لتغييرها.

ونحن نعجز عن تحويل الشارع العربى إلى شارع مقاومة، لأن التعبير عندنا أصبح ظاهرة صوتية وترجع العلة إلى التناقض الواضح بين القول والفعل ويبدو أن هذا التناقض سمة لا تميز الثقافة المصرية فقط بل الثقافة العربية والإسلامية بوجه عام فالآية القرآنية الكريمة تخاطب المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾. (الصف: ٢، ٣).

وإن الآفة الخطيرة التى يمكن أن تترتب على مثل هذه الخاصية، تتمثل فى شيوع الكذب والنفاق فى العلاقات الاجتماعية والسياسية، وهى نتيجة منطقية بإزاء أشكال القهر الاجتماعى والسياسى.

يفقد الشعب المصرى روح المقاومة تمامًا، ويترك نفسه للظروف تلعب به كما يشاء، ويرجع إلى مناخ اجتماعى عام ثابت منذ قديم لا يتغير، فالشخصيات المسئولة تتلون وتتبدل حسب الحاكم، وتغيرت تصرفات المسئولين من الستينيات إلى السبعينيات، ليس فقط من الناحية السياسية بل من الناحية الأخلاقية أيضًا، فلم نسمع عن قضايا الرشوة والفساد فى الستينيات كما نسمع عنها الآن، لم نسمع عمن استولى على أرض مملوكة للحكومة أو عين أقاربه أو محاسيبه أو اغتنى بين يوم وليلة، ثم جاءت السبعينيات وما تلاها لتجد المسئول غير مسئول بالمرة، سمح لنفسه أن يفعل كما يشاء دون حسيب أو رقيب، وزاد الاستهتار

بأحكام القضاء وامتنع المسئولون عن تنفيذها، حتى فى مجلس الشعب، علت صيحة رئيسه بأن «المجلس سيد قراره».

وتتجسد ظاهرة التناقض بين الفكر والعمل أبرز ما تكون فى أوساط المثقفين وغيرهم الذين رصدهم أحد شعراء المقاومة الشاعر الشعبى «أحمد فؤاد نجم» بقوله:

الثورى الثورى الكلمنجى
هلاب الدين الشفطنجى
قاعد فى الصف الأكلانجى
شكلاطه وكراملة
يتمركس بعض الأيام
ويصاحب كل الحكام
وبستاشر ملّة
واترستق هلاب الدين
بقى عاقل جدًا ورزين
يا عينى علينا يا مساكين
عشنا ومتنا بعلّة

ويقول محمود عودة: قارن بين موقف المثقف فى المعارضة وبينه حين تغازله السلطة، وحين يتطلع إليها، حين يصبح جزءًا منها بالفعل بعد أن يخلع كل أردية المعارضة والنقاء بسرعة ليرتدى محلها أردية الدفاع والتبرير.

وكل من كتب عن طباع المصريين قد أشار إلى خاصية السلبية واللامبالاة عبر الحقب المختلفة مما يشير إلى استمرارية الظروف الاجتماعية والسياسية التى أفرزتها فهى ليست خاصية جديدة على نحو ما تذهب إليه التحليلات التى طرحت فى الصحف والكتب الحديثة.

ونحن هنا لسنا بصدد البحث عن أسباب صفات الخضوع والخنوع والاستسلام واللامبالاة والسلبية، والجهل وعدم المبادرة عند الشعب

المصرى، فهذا بحث يطول شرحه.

وما يهمنا هنا فقط أن نتكلم عن فلسفة المقاومة بطريقة أقرب من العلم عنها من الفلسفة، فالفلسفة هى طرح الأسئلة ومحاولة الحصول على إجابات، والإجابات اجتهادات يقوم بها الفيلسوف وليست علمًا على الإطلاق.

ومن هذا المنطلق كان علينا أن نكتب عن تاريخ المقاومة فى مصر منذ تأسيس الدولة المصرية القديمة، ولكنا سنكتفى بالإشارة إلى المقاومة فى العهد الحديث وإلى قيادات المقاومة الفكرية والسياسية نتذكر على سبيل المثال: رفاعة الطهطاوى وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وحسن البنا وعبدالله النديم وغيرهم، كما نتذكر من الجانب السياسى عرابى ومصطفى كامل وسعد زغلول وجمال عبد الناصر وآخرين - ولا ننسى شعراء المقاومة الكلاسيكيين والشعبيين نتذكر محمود سامى البارودى كما نتذكر الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم وبيرم التونسى وآخرين.

وفى سردنا هذا نشير إلى المقاومة بمفهومها الواسع، مقاومة الصفات الشخصية المعوقة لتقدم الإنسان وإبداعه، الكسل والسلبية واللامبالة وعدم النظافة، كما يغطى مفهوم المقاومة، مقاومة الفساد والانحرافات وخيانة الأمانة، والجهل والمرض، والفقر ومقاومة التقاليد الحالية التى ترسخ الجمود وعدم التطور، والعلاقات غير السوية بين أفراد المجتمع، والأنانية وحب الذات أكثر من اللازم، والرضوخ للأنا العليا.

ونركز هنا على التغيير داخل الجامعة ومقاومة الأنماط السائدة فى البحث العلمى والتعليم والعلاقات العامة، كما أننا نركز على المقاومة من أجل إحياء مفهوم القومية والوحدة، والدين وإعلاء شأنه، ونؤكد أنه ليس هناك أى تعارض بين الدعوة القومية، والدعوة الإسلامية.

ولعلنا من خلال هذا الشرح نبنى كيانًا ثقافيًا قويًا بعد أن تعرضت ثقافتنا للتهديد الحقيقى بالاختلال وفقدان الهوية لأننا عجزنا عن

الإنتاج الفكرى والثقافى وتركنا الأبواب مفتوحة على مصاريعها أمام منتجات الحضارات الوافدة.

والحديث عن ثقافة عربية، كما يقول محمد الجوهرى، هو بالضرورة حديث عن معنويات وقيم وتوجيهات فكرية، وهو أيضًا حديث عن ثوابت وأولويات وبغير ذلك يصبح الحديث للأسف فارغ المعنى بعيدًا عن الإفادة من نتائج العلم.

والثقافة العربية المطلوبة تناقش أساليب الحياة والمجتمع. وهذا عمل الفلاسفة بدون شك، والفيلسوف لا يعيش فى برج عاجى، وكل فيلسوف ترك مذهبًا فلسفيًا إنما كان متأثرًا ومعبرًا عن الواقع الذى يعيش فيه، وفى الوقت نفسه قائلاً بأفكار خلاقة ومبدعة تنير للإنسان طريقه وتؤدى وظيفة اجتماعية معينة.

ويقول عاطف العراقى:

«والمتأمل فى واقعنا العربى المعاصر، واقعنا الذى نعيشه ونحياه، يلاحظ أن واقعنا فى وادٍ والفلسفة فى وادٍ آخر، وهذا لا يعد تقصير من جانب الفلسفة بل التقصير من جانبنا نحن، فإذا قلنا إن الفلسفة تهتم بالبحث فيما وراء الظاهر، تهتم بالبحث فى حقيقة الأشياء، إلا أننا فى حياتنا نميل إلى السطحية وعدم التعمق.

يكرر مثل هذا الكلام عن عدم وجود فلسفة عربية حديثة وأننا أصبحنا وكلاء للغرب، حسن حنفى، وصلاح قنصوه، وغيرهما من دارسى الفلسفة وأساتذتها فى مصر.

وبالتالى إذا كنا نريد حقًا كيانًا ثقافيًا يخدم المجتمع المصرى، فأول ما نقاومه هى طريقة البحث والدراسة فى الكليات النظرية، وخاصة فى أقسام الفلسفة والاجتماع، وحتى أقسام اللغة تحتاج إلى إعادة النظر فى مناهج تدريس اللغة العربية، ولسنا بحاجة إلى القول أن النقد الأدبى واللغة يعتمدان اعتمادًا كبيرًا على الدراسات الفلسفية، بل أن الدراسات النقدية واللغوية بثريان الفكر الفلسفى، وقد تصور طه حسين أنه برعايته

تدريس اليونانية واللاتينية نخدم تدريس الفلسفة والثقافة المصرية بوجه عام التى اعتقد كثيرًا فى انتمائها إلى ثقافة البحر المتوسط القديمة. وللأسف يظل التويريون الجدد يعتقون أفكار طه حسين ولا يتعظون بتجارب البلاد الشرقية التى نبذت الفكر الغربى وتمسكت بثقافتها وتراثها، هذا التمسك الذى كان سببًا فى حفاظها على الهوية والأصالة بعيدًا عن مآسى الغرب وكوارثه التى حدثت منذ اندلاع الحرب العالمية الأولى. ومهد لنهضتها العظيمة كما حدث فى الصين واليابان.

ويقول محمود إسماعيل: ومن ثَمَّ وجب التنبيه أن تجاوز التراث باسم الحداثة أمر غير مقبول معرفيًا وواقعيًا، ولسوف يترتب عليه نتائج تؤدى إلى مزيد من التشرذم والفرقة، وإتاحة الفرصة للتيارات الأصولية للانفراد باحتكار التراث بصورة مضببة لصياغة مشروعها المعوق للحداثة، كما يتيح الفرصة بالمثل للتيارات التغريبية بأن تمعن فى تغريبها وهى تصوغ مشروعها المضاد.

لابد للمشروع المستهدف من قراءة خريطة الواقع الفكرى الراهن بسائر اتجاهاته وتياراته، وتوظيفها جميعًا من أجل بناء قاعدة فكرية مشتركة ومتفق عليها تجمع بين الماضى والحاضر والمستقبل فى وحدة عضوية تتيح مجالاً للخصوصية والتعددية فى آن واحد.

ولن ننتظر طويلاً حتى يتم التغيير فى جانب لننتقل إلى جانب آخر، بل يجب أن نبدأ فى جميع المجالات فى آن واحد، المقاومة من أجل الحرية ومقاومة الاستبداد وتسلط الطغم الحاكمة، المقاومة من أجل تدعيم الفكر القومى والإسلامى، المقاومة من أجل بناء فلسفة القوة فلسفة العلم والتقنية، المقاومة من أجل تغيير أساليب التربية، ومساعدة النشء على التحلى بأخلاق وقيم تساعدهم على مقاومة الانحرافات.

المقاومة من أجل المشاركة الفعلية لجماهير الشعب فى عملية اتخاذ القرار، العناية أكثر بتربية المرأة.. فما أحوجنا لنساء مثيلات بالخنساء وعائشة رضى الله عنهما وأسماء أم عبدالله الزبير كرم الله وجهها.

إن المرأة عليها مسئولية كبيرة فى إحياء روح المقاومة للفساد، وحماية الوطن، وإعلاء كلمة الحرية والديمقراطية، فالتربية فى البيت يجب أن تكون تربية ديمقراطية تدعم حق الاختيار ولا ينبغى بأى حال من الأحوال أن ترهق المرأة الرجل بطلباتها التى قد يضطر لتلبيتها إلى الانحراف والرشوة والتنازل عن كرامته كرجل ورب أسرة يجب احترامه.

يقول الأمير شكيب أرسلان فى ترجمته: إنه لقيه بالأستانة سنة ١٨٩٢ وكان من شدة ما يجد من الألم لحال الإسلام تخطر له خواطر نادرة فى هذا الموضوع، فقال له مرة: «قد فسدت أخلاق المسلمين إلى حد أن لا أمل أن يصلحوا إلا بأن ينشئوا خلقًا جديدًا وجيلاً مستأنفًا، فحبذا لو لم يبق منهم إلا كل ما هو دون الثانية عشر من العمر، فعند ذلك يتلقون تربية جديدة تسير بهم فى طريق السلامة».

وهل مازلنا على نفس الحال من اليأس الذى حمله الأفغانى بين ضلوعه...» يبدو كذلك ولكن لا الأفغانى ولا نحن نعلم كيف ننشئ هذا الجيل الصالح الذى يستطيع أن يسير فى طريق السلامة.

وهنا سوف يقول القارئ: أنت لم ترشدنا إلى طوق النجاة لقد شخصت العلة ولم تصف العلاج، وردِّى على القراء الكرام أن الدواء موجود فى كل كتب التربية والفلسفة وعلم الاجتماع، ولقد أشارت علينا به منظمات هيئة الأمم المتحدة وهى تركز على المجتمع المدنى ودوره فى التنمية الثقافية والاجتماعية والسياسية.

والسؤال: كيف ينمو المجتمع المدنى والمؤسسات غير الحكومية؟

تأخذ أية مؤسسة شكلها الرسمى طبقًا للخريطة التى ترسم تدرج الإدارة فيها، وينظم العلاقة بين الإدارة العليا والإدارة المتوسطة والأفراد عند القاعدة لوائح المؤسسة.

وينصح علماء الإدارة أن يخرج العاملون فى المؤسسة من إطار التشكيل الرسمى إلى تشكيل آخر يسمى الجماعة غير الرسمية، تتلخص مهمتها فى توثيق العلاقات الاجتماعية وروح الود والمحبة بين

العاملين، وتتضمن أنشطة هذه الجماعة مناقشات غير رسمية تدور بين العاملين وتبادل الآراء فيما يفيد مصلحة العمل وتطويره.

وهذه الجماعة غير الرسمية يمكن أن تتكون داخل الجامعة، وهى تبدأ بالعاملين فى القسم، ثم تتوسع لتشمل الكلية، ومن هنا تنمو لتضم كليات الجامعة المختلفة.

ولنأخذ تكوين الجماعة غير الرسمية فى قسم الفلسفة على سبيل المثال، لكى تبدأ هذه الجماعة فى التكوين، على العاملين فى القسم أن يعترفوا بأن الفلسفة التى تقدم فى الأقسام الفلسفية عاجزة عن خلق فكر متطور ينهض بالأمة، وربما يجد الأعضاء فى كلامنا الصدمة التى لم يتوقعوها، وهم لا يشعرون فعلاً بعدم جودة الدرس الفلسفى فى أقسامهم، نقول لهم: ابذلوا بعض الجهد فى جمع الدراسات التى أجريت حول الفلسفة فى الوطن العربى وهى كثيرة، ثم ابدءوا فى فحصها وتقويمها، وحتى لو كانت الفلسفة فى وضعها الحالى جيدة ومفيدة، فسنة الكون التطور وتكون الخطوة التالية إذن تطوير الفلسفة، ويبدأ العاملون فى القسم العمل على هذا التطوير من خلال اجتماعات دورية منتظمة طوال العام، ثم تبدأ فى الوقت نفسه دراسة تشابك الفلسفة مع الأقسام الأخرى، اللغة، الأدب، الاجتماع، ومن هنا تنتقل الجماعة نقلة نوعية لبث روح العمل الجماعى فى الجامعة. الهدف الأخير من هذه الاجتماعات هو معرفة ما إذا كانت الفلسفة تخدم المجتمع أم لا، وعلى الأخص تربية الطلبة وحثهم على مقاومة الأوضاع الحالية المتردية، والنهوض بالطالب إلى إنسان أفضل وأكثر وعيًا وحكمة ومعرفة مع غرس روح الانتماء والجماعة والفداء فى نفوسهم. والأساس فى تكوين الجماعة غير الرسمية هو تحييد الأنا العليا. والنزول للتعامل مع الجماعة على أساس الوعى بالذات وبالآخر. نحن لا نتكلم عن الآخر البعيد عنا بأميال، ونهمل الآخر الذى يعايشنا يوميًا ولا نفهم نزعاته ولا تطلعاته ولا نفيد من إمكانياته.

وأخيرًا نود أن نؤكد أننا لسنا فى حلقة وعظ، فما نقوله هو الأسلوب الأمثل للتنمية والذى تسير عليه كل البلاد المتقدمة.. مع العلم أن الطالب فى قلب هذه الجماعة غير الرسمية.

وفى البلاد المتقدمة يمثل الطلبة فى مجالس الأقسام والكليات والجامعة.. ولا تقيده لوائح تحد من حركته فى العمل السياسى والاجتماعى داخل الجامعة، وعلى الجماعات غير الرسمية أن تكسر الحواجز التى تمنع الطلبة من التعبير والمشاركة الفعلية فى الحياة العامة.

فلقد كشفت الدراسات التى أجريت لمعرفة أسباب عزوف المرأة عن المشاركة السياسية أن أهم هذه الأسباب هو عدم التدرب على هذه المشاركة منذ الصغر، لذا قامت لجنة المشاركة السياسية بالمجلس القومى للمرأة بوضع خطة لتدريب طالبات الجامعات على المشاركة فى الاتحادات الطلابية لاكتساب المهارات التى تؤهلهن لخوض تجربة الترشيح وممارسة حق الانتخاب والتصويت. وقد تم وضع سلسلة من البرامج لتفعيل دور فتيات الجامعة فى الحياة الطلابية بالتعاون بين لجنة المشاركة السياسية بالمجلس ومركز دراسات واستشارات الإدارة العامة بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة.

وكل ما نخشاه أن تتم هذه البرامج بعيدًا عن مشاركة عضوات هيئة التدريس من جميع الاتجاهات السياسية، وتكون النتيجة فى النهاية هى إعداد فريق من النساء ينضم إلى الحزب الوطنى ويصفق لقياداته ولسياساته التى تسببت ولا تزال فى انهيار المجتمع المصرى.

وبدلاً من أن تظل المرأة سلبية لا تكترث بالعمل السياسى تدخل فى نطاق الانتهازية السياسية وتعمل على تنشئة أجيال من المنافقين والمرتزقة.

ويوهمنا البعض بأن الصورة التى تبثها الدوائر الاستعمارية عنا هى أمر واقع، تقره الأغلبية العظمى من الرأي العام الغربى.

أين يقف نعوم تشومسكى، ومايكل مور، وجارودى، وجالاوى، هؤلاء

خرجوا من دوائر الاستعمار - ليعلنوا اعتراضهم على سياسات حكوماتهم، وقفوا مع حقوق الشعب الفلسطينى، واعترضوا على غزو العراق.

ومعهم خرجت الملايين فى مظاهرات فى كل مدن العالم تعترض وتناضل من أجل الحرية لكل البشر، وتنتصر للحقوق العربية.

وعلى الجانب الآخر وقفت الدوائر الاستعمارية مع المستشرقين الذين يمهدون لهم الأرض لممارسة عدوانهم الأثيم ضد عالم مسالم متسامح للأسف، هم وحدهم الذين يتهمون العرب والمسلمين بأنهم أهل عنف وأصوليون يكرهون الغرب ويريدون تحطيم حضارته... وأفلحوا فى إنشاء تحالف صهيونى مسيحى أصولى.. يحاربنا فى أشرس معركة، ولا حيلة لنا إلا أن نقاوم العدوان بالعدوان وليس هنا مجال للدعوة إلى حوار الحضارات ولقاء الأديان وجنودهم الأنجاس يدنّسون أرضنا... وأنا لا أدرى من الذى وضعنا فى هذا الموقف المزرى، أهم الأصوليون المسلمون، أم العلمانيون الذين وجهوا الفكر وأوحوا للجميع بثقافة الاستسلام؟

أدين فى هذا العمل لكُتّاب شُرفاء رفعوا راية المقاومة، منهم على سبيل المثال، طارق البشرى، وأحمد كمال أبو المجد، ومحمد سليم العوا، ورضوان السيد، نقلت عنهم، كما أدين لمجلة سطور ورئيس مجلس إدارتها الدكتورة فاطمة نصر بالكثير، وعدد المجلة الأخير (٩٦) بمثابة رسالة فى المقاومة، نقلت منه مقالة قيمة لكاتب مجهول وضعتها فى آخر الكتاب تحت عنوان: «بن لادن الأسطورة».

أعترف بالجميل والعرفان لكل هؤلاء

المؤلف

القاهرة - الدقى

٢٠٠٤/١١/٢٨